المائدة وهوية انتماء العائلة التقليدية المغاربية

دراسة أنثروبولوجية رمزية

أ.د.سعيدي محمد *

المقدمة:

نسعى في هذه الدراسة إلى مساءلة موضوع المائدة ودورها في تحديد هوية الانتماء العقائدي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والفني للعائلة التقليدية[1].

منذ البداية، نشير إلى أننا تعملنا مع موضوع المائدة كرمز وكخطاب وكنظام عقائدي واجتماعي وثقافي واقتصادي وفني. فالمائدة حقل سيميائي[2] ودلالي غني من حيث العلامات الدالة والمتفاعلة فيما بينها تفاعلا مزدوج البنية الداخلية والخارجية:

_مستوى البنية الداخلية: إن التفاعل البنيوي الداخلي يتمثل في ذلك الحضور الكمي والنوعي لكل الأشياء الموجودة على المائدة من أواني وفخار ومأكولات ومشروبات باختلاف أشكالها وأنوعها وألوانها.

_مستوى البنية الخارجية: إن التفاعل البنيوي الخارجي يتمثل في التفاعل البشري مع المائدة من حيث التسويق والتحضير والطبخ والترتيب والتنظيم والاستهلاك والأكل.

وسواء أكان التفاعل داخليا أو خارجيا، فإنه يبقى مرهونا بعدد من السياقات المادية والمعنوية والسلوكية، مما يؤهل المائدة إلى احتلال مكانة مرموقة ومميزة في المخيال البيولوجي والعقائدي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والفني للعائلة التقليدية.

فالمائدة هي كل هذه السياقات، وكل هذه المنظومات المتفاعلة فيما بينها تفاعلا عضويا وبنيويا ،وبالتالي، فإن كل سياق ومنظومة تسعى إلى أن تجعل منها _أي من المائدة_ جزءا لا

* كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية جامعة تلمسان. msaidi45@yahoo.fr

يتجزأ من امتداداتها الرمزية والواقعية وبالتالي فقد تعبر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن رغبات[3] وطاقات ومعارف العائلة. فالمائدة هي حالة وفعل:

(un état et un faire) متعدد الروافد والمصادر المادية والمعنوية والسلوكية ومتعدد الأهداف والمقاصد.

ومن أجل مساءلة المائدة واستنطاق عناصرها البنيوية الداخلية والخارجية وما تشيعه من دلالات مختلفة، وما تزخر به من قيم ثقافية واجتماعية واقتصادية وعقائدية وفنية، رسمنا التصميم التالي:

1_تعريف المائدة

2_المائدة والعائلة التقليدية

3_المائدة والبعد العقائدي

4_المائدة والتنشئة الاجتماعية والثقافية

5_المائدة والبعد الاقتصادي

_المائدة والنظام الفني والجمالي

7_الخاتمة.

1_تعريف المائدة:

قبل أن نبدأ في مساءلة التعددية الدلالية والوظيفية للمائدة، نحاول أن نعرفها ونحدد إطارها المفهوماتي الحقيقي والمجازي.

فالمائدة حسب تعريف ابن منظور في لسانه[4] الشهير هي: "الطعام نفسه وإن لم يكن هناك خوان، مشتق من ذلك، وقيل هي نفس الخوان. قال الفارسي: لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام وإلا فهي خوان. قال أبو عبيدة: وفي التنزيل العزيز: أنزل علينا مائدة من السماء .المائدة في المعنى مفعولة ولفظها فاعلة، وهي مثل عيشة راضية بمعنى مرضية وقيل: إن المائدة من العطاء، والممتاد: المطلوب منه العطاء مفتعل، وأنشد لرؤية:

تهدى رؤوس المترفين الأنداد: : إلى أمير المؤمنين الممتاد.

أي المتفضل على الناس، وهو المستعطي المسؤول، ومنه المائدة وهي خوان عليه طعام. ومماد زيد" عمرا، إذا أعطاهن وقال أبو إسحق: الأصل عندي في مائدة أنها فاعلة من ماد يميد إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها أي تتحرك، وقال أبو عبيدة: سميت المائدة لأنها ميد بها صاحبها، أي أعطيها وتفضل عليه بها. والعرب تقول: مادني فلان يميدني إذا أحسن إلي، وقال الجرمي: يقال مائدة وميدة، وأنشد:

وميدة كثيرة الألوان: : تصنع للإخوان والجيران.

ومادهم يميدهم إذا زادهم. وإنما سميت المائدة مائدة لأنه يزاد عليها. والمائدة: الدائرة من الأرض." ومهما اتسعت الدائرة التعريفية وتعددت المحطات اللغوية والدلالية والرمزية، فإن المعنى العام والشامل للمائدة هي ذلك الخوان الذي يوضع عليه الطعام، كما قد يكون معناها أصلا الطعام في حد ذاته.

وقد حاولنا متابعة معاني كلمة المائدة في اللغة الفرنسية، غير أننا لم نجد لها معادلا لفظيا بنفس الحمولة الدلالية والشكلية العربية، حيث وقفنا في اللغة الفرنسية على كلمة Tableوالتي هي أصلا ترجمة[5] للكلمة العربية طاولة. غير أن الفكر اللغوي والاجتماعي والثقافي الفرنسي حمل كلمة Table معاني ووظائف شبيهة بتلك التي اقترنت بكلمة المائدة في الفكر اللغوي والاجتماعي والثقافي العربي.

لقد خصص قاموس Petit Robert [6] كلمة Table بمادة غزيرة ومتنوعة، وهي المادة اللغوية والدلالية الحاضرة في أغلب قواميس اللغة الفرنسية والتي تم تلخيصها وتصنيفها كما يلي:

أ_وصف_Table_طاولة: وهي شيء مسطح المساحة، قائمة على رجل واحدة أو مجموعة الأرجل، توضع فوقها أشياء، مرتفعة ارتفاعا نسبيا على سطح الأرض.

ب_وظيفة_Table_طاولة: يتناول فوقها الطعام والشراب، كما تدل كلمة Table على معنى الأكل وزمن الأكل، وثقافة الأكل وسلوك الأكل.

ج_تعددت معاني ووظائف كلمة.Table _طاولة، بتعدد الانزياحات الدلالية والوظيفية والرمزية:

Table à manger: طاولة الأكل

Table de travail: طاولة العمل

Table de jeu: طاولة اللعب

Table ronde: طاولة مستديرة للحوار وللنقاش

Table des matières: فهرس الموضوعات

ونحن نستقصي معاني كلمة المائدة في اللغات الأجنبية، أحسسنا غياب المعادل اللفظي الصحيح والسليم والدقيق في هذه اللغات لهذه الكلمة، ولعل ما يؤكد بعض من إحساسنا هذا. هو ذلك الحضور لكلمة المائدة معربة وليست مترجمة في الكتابات الروائية عند عدد من الروائيين المغاربة الذين كتبوا باللغة الفرنسية عن الحياة الاجتماعية والثقافية والعقائدية في المجتمع ألمغاربي[7]: أمثال محمد ديب، محمد شكري، رشيد بوجدرة، طاهر جلون، عبد الكبير خطيبي، إدريس شرايبي آسيا جبار.

وخير من يمثل هذا الاتجاه وهذه الظاهرة الروائي محمد ديب الذي احتفظ بكلمة المائدة في كتاباته دون أن يترجمها أو يبحث لها عن معادل لغوي في اللغة الفرنسية على الرغم من مستواه وعبقريته وتفوقه في هذه اللغة.

ولا يمكن لنا أبدا الاعتقاد في أن توظيف كلمة المائدة والاحتفاظ بها من حيث البينية اللفظية والصوتية والصوتمية هو توظيف برئ أو اعتباطي أو بدون دلالة وظيفية ثقافية وسلوكية وحضارية وعقائدية، فهو يقول في نص روايته[8] « Qui se souvient de la mer »

« Je vais apporter la maida et appeler les enfants, chant-_t_-elle en même temps »

وفي مكان آخر في النص يقول.

« Soulevant le rideau de la porte, Nafissa revint dans un éclat du joie. Elle apportait la maida »

لعل ما يثير التساؤل حول هذا التوظيف والمحافظة على الكلمة من حيث بينتها الصوتية والصوتمية، أن الكاتب الروائي محمد ديب في نصه هذا وظف هذه الكلمة ووظف أيضا كلمة Table"طاولة" وكان ينوع في استعمالاتهما تماشيا ومقاصد النص من حيث البعد الثقافي والاجتماعي والسياسي والايديولوجي.

فهو حين يقول:

« Voyons les voisins vont t'entendre, et elle se lève pour mettre la table »

وفي نفس النص يتحدث عن المائدة كما أشارنا سابقا، فهنا لا بد من القول أن هذا التوظيف ليس بريئا، فهو محمل بدلالات وبقيم اجتماعية وثقافية وسلوكية مرتبطة ارتباطا عضويا بهوية انتماء العائلة والجماعة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هو أيضا إعلان عن البحث عن هذه الهوية في خضم الصراعات الاجتماعية والثقافية والنفسية والسياسية والتاريخية، "إن وظيفة هذا البحث تتم إذن على مستويات ثلاثة متداخلة فيما بينها وهرمية وهي:

-البحث عن الذات (البحث عن الهوية)

-البحث عن المرأة (بوضعها رفيقة لكن بخاصة بوصفها رمزا للتواصل ماض وحاضر ومستقبل، رمزا للدوائر.

_البحث عن الـ "نحن" (الجماعة التي نندمج فيها والتي تمثل الأزمة الجديدة"[9]

تشكل المائدة جزء لا يتجزأ من التراث المادي التقليدي الشعبي للعائلة. والتراث الشعبي كما يقول الأستاذ صبري مسلم حمادي "هو عالم من الرموز التي تحتمل التوظيف، والروح من خلالها بدلالات جديدة، وتكسب قضايا العصر من خلال الرمز الشعبي الفن والعمق، وهذا هو هدف الاستخدام الأول، فليس الغرض منه أن ترد الجزئية الشعبية كما هي، بل أن ترد بإضافات عصرية نحس من خلالها بروح العصر ونبض الواقع."[10]

لقد نوع الكاتب والروائي محمد ديب في نصه هذا في استعمالات لكلمتي المائدة والطاولة "Table" وعمل على استثمار ما توحي إليه كل كلمة في السياقات الاجتماعية والثقافية والسلوكية التي أوجدتها وضمنت لها الوجود والاستمرارية الوظيفية:

المائدة للأكل = الطاولة للأكل.

غير أن توظيف الكلمتين في النص الواحد وعند الكاتب الواحد قد يتعدى البعد الوظيفي المادي إلى أبعاد أخرى أكثر عمقا وأكثر إثارة. فموضوع الرواية وشخصياتها وأزمنتها وأمكنتها ولغتها هي تصوير لحالة عائلة تلمسانية تعيش واقعها المتناقض في زمن حرب التحرير حيث الاعتداءات

والمظاهرات والكبسات والإعدامات والملاحقات والاحتجاز والانفجار وكوابيس الليل الخ... فهي عائلة مرشحة للنضال وللمقاومة المادية والمعنوية والسلوكية وتمسكها بأشيائها التقليدية مثل المائدة صورة من صور المقاومة المرتبطة بالثقافة والتاريخ والحضارة والهوية.

2-تعريف العائلة التقليدية:

يقصد بالعائلة التقليدية تلك العائلة التي لا يزال أعضاؤها خاضعين إلى السلطة الأبوية ويعيشون تحت السقف الواحد اجتماعيا وثقافيا وعقائديا واقتصاديا وعمرانيا، محافظين ومحتفظين على عادات وتقاليد ومعتقدات السلف. وقد "تتصف العلاقات داخل العائلة بالتماسك والتواكل والعصبية القائمة على أواصر الدم أو اللحمة النسبية، والتوحد في مصير مشترك حتى يصبح الفرد في الأسرة عضوا يقاسم الأعضاء الآخرين فرحهم وحزنهم ومكاسبهم وخسائرهم."[11]

فالعائلة التقليدية هي، من حيث المفهوم والفاعلية، منظومة بشرية متماسكة تماسكا عضويا داخليا وفق منطق بيولوجي واجتماعي وثقافي وعقائدي، استمد مادته ونظامه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من القرابة[12] وما تشيعه من إفرازات مادية ومعنوية وسلوكية والتي ولد فيها وفي أحضانها كل أفراد العائلة الواحدة ,وتغذووا منها وتربوا وترعرعوا في كنفها. وقد تتجسد فاعلية القرابة في تحديد الإطار البيولوجي والاجتماعي والثقافي والعقائدي للعائلة التقليدية والتي تتكون من رب العائلة وزوجته وأولاده غير المتزوجين وبناته غير المتزوجات وأولاده المتزوجين مع زوجاتهم وأطفالهم، وهؤلاء يسكنون في دار واحدة أو في شقق ملحقة بالدار الأصلي الذي يترأسه الأب ويدير شؤونه الخاصة والعامة."[13]

3_المائدة والبعد العقائدي:

تحتل المائدة مكانة متميزة وخاصة في المخيال العربي الاسلامي حيث ارتبط اسمها بسورة من سور القرآن الكريم، وهي سورة "المائدة" والتي تبتدئ بقوله سبحانه وتعالى: "**يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود، أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، إن الله يحكم ما يريد.**"[14]

وقد ورد لفظ المائدة في هذه السورة مرتين في قوله سبحانه وتعالى: "**إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء. قال اتقوا الله إن كنتم**

مؤمنين قال نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وأخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إني منزلها عليكم. فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين."[15]

لقد اتحدت العناصر الدلالية المرتبطة بالمائدة في هذا النص القرآني من حيث السياق الديني العقائدي الخاص بالأكل والطعام وذلك وفق منظومة روحية إيمانية تأسست أصلا على الثنائية الضدية التالية:

إيمان .# كفر

صدق .# كذب

قدرة .# عجز

حلال .# حرام

شكلت هذه الثنائيات مرجعا أساسيا ومنهجية دينية نظمت على منوالها العائلة التقليدية المغاربية مائدتها مكتسبة إياها شيء من التقديس ومن هوية الانتماء العقائدي. فكانت تسعى وبإلحاح شديد وبصرامة ومنطق ثابت من أجل أن تكون المائدة امتدادا روحيا للعقيدة الإسلامية القائمة أصلا على مبدأ الإيمان بالله وقدرته والعمل الصالح والحلال الذي يرضى به و عنه الله سبحانه و تعالى.

ومن هذا المنطلق العقائدي، صنعت العائلة التقليدية المغاربية دستورا لتسيير شؤون مائدتها والتي هي جزء لا يتجزأ من عبادتها ومن حسن و قوة إيمانها.

فكما أنها مطالبة بالشهادة والصلاة والصوم والزكاة والحج والعمل الصالح والحلال، فإنها أيضا مطالبة بترجمة عقيدتها في تسيير مائدتها والتي لا يوضع فوقها الحرام والخبيث والمدنس، فهي مائدة نظيفة طاهرة مقدسة وطيبة...فمهما تنوعت أطباقها واختلفت أذواقها، فهي لا تخرج ولا تتعدى حدود المقدس الغذائي والذي فصل فيه القول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وشرحه الرسول الكريم في سنته الحميدة.

فالمائدة هي امتداد طبيعي لعقيدة العائلة والتي تبقى ملتزمة في صيانتها والعناية بها كركن أساسي في منظومته العقائدية. فإن هي أرادت أن تأكل لحما وأن تضعه على مائدتها فهي لا تخرج عن قوله سبحانه وتعالى: "**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالأزلام. ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم وأخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا، فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم، فإن الله غفور رحيم**".[16]

يعتبر نظام تسيير شؤون المائدة ومضمونها جزء لا يتجزأ من عقيدة المؤمن الذي يسعى ويجتهد وينضبط انضباطا سلوكيا دينيا كاملا من حيث الأكل وسلوك الأكل ومضمونه.

فلقد رسم الدين الإسلامي للمؤمن نظاما ثقافيا وعقائديا وبيولوجيا يسير في ضوءه مائدته من حيث الفاعلية المقدسة والفاعلية الدنيوية.

وقد صاحب الانضباط المقدس الغذائي من حيث الفاعلية المقدسة انضباط أخلاقي عمل المؤمن من أجل الالتزام به وتبينه نظاما ودستورا لثقافة المائدة من حيث تناول الطعام، والجلوس حول المائدة، والاحترام والنظافة والحديث والسماع والحوار...

لقد سهرت العائلة التقليدية المغاربية على فرض ثقافة انضباط أفرادها عند المائدة وفق ما تنصص عليه آداب وأخلاق الأكل وتربيتهم وتثقيفهم وفق ما تشيعه هذه الثقافة من قيم مادية ومعنوية وسلوكية.

وفي هذا الصدد، نشير إلى بعض اجتهادات الفقهاء والعلماء المسلمين في رسم منهجية دينية خاصة بآداب الأكل وآداب المائدة. ولقد وجدت العائلة التقليدية المغاربية في هذه الاجتهادات المادة والمنهجية من أجل تنشئة أفرادها تنشئة دينية في مادة المائدة.

نذكر في هذا العدد ما أورده الشيخ أبو بكر الجزائري في كتابه "منهاج المسلم"[17] في الفصل التاسع في مادة آداب الأكل والشرب. ومن بين ما قاله الشيخ نذكر:

_أن يبدأ الأكل باسم الله.

_أن يختم الأكل بالحمد لله.

_أن يأكل المرء بثلاثة أصابع من يده اليمنى .

_أن يجيد المضغ وأن يلعق الصحفة وأصابعه قبل مسحها بالمنديل.

_إذا سقط منه شيء مما يأكل أزال عنه الأذى وأكله.

_أن لا ينفخ في الطعام الحار.

_أن يتجنب الشبع المفرط.

_أن يناول الطعام أو الشراب أكبر الجالسين.

لقد استطرد كثيرا الفقهاء وعلماء الإسلام في شرح وتفسير ونشر آداب الأكل وآداب المائدة معتمدين في ذلك على ما ورد في القرآن الكريم وفي السنة النبوية.

ولكي تجعل العائلة التقليدية المغاربية من مائدتها فضاء حلالا ومقدسا بامتياز، عملت جاهدة على تثقيف أفرادها ثقافة غذائية إسلامية من خلال التوجيهات والنصائح والتوبيخ والعقوبات ،إن هم عكسوا هذه السلوكيات بتبني سلوكيات مناقضة لما يجب أن يكون في آداب الأكل الشرعية.

وقد يتربى الفرد المغاربي و هو صغير على هذه الثقافة وينمو وتنمو معه قيمها محتلة في مخياله مكانا ومكانة مقدسة من حيث الانضباط المائدي انضباطا ماديا ومعنويا وسلوكيا عقائديا. فالمائدة وما يوضع فوقها ومن هم جالسون حولها تشكل نظاما عقائديا تريده العائلة التقليدية كذلك، امتدادا لعقيدتها الدينية الإسلامية. فهي تعبير صادق عن البعد الديني وعن الديانة التي تمارسها وتؤمن بها العائلة...

4-المائدة والتنشئة الاجتماعية والثقافية

تشكل المائدة قيمة أساسية وثابتة من حيث التفعيل الاجتماعي في مادة العلاقات الاجتماعية، لأنها تأسست أصلا وفق المنطق الاجتماعي الجماعي[18]، فهي مرادف لحركية اجتماعية عائلية، تجمع أفراد العائلة الواحدة في أوقات معينة ومحددة ووفق عرف عائلي ووفق أصول وسلوكيات وطقوس[19] اجتماعية وثقافية تسعى العائلة إلى تفعيلها والحفاظ عليها من حيث المادة والمنهجية الاجتماعية والثقافية.

لقد تأسست المائدة كفعل ثقافي وكحالة اجتماعية (un fait culturel et un état social) لتحتل مكانة أساسية في المخيال العائلي. فهي تجمع الأفراد وتغذيهم وتثقفهم. فهي حقل خصب

للتفاعل الاجتماعي والثقافي والبيولوجي للفرد بامتياز، فهي "تربطه بأفراد عائلته والتي تشكل الدور المؤثر في تطوير وتنمية حالته الروحية والأخلاقية والإنسانية. وهذا ما يساعده على تحقيق ذاتيته والاستفادة من قدراته وقابليته. إن العائلة تعتبر من أهم المؤسسات الاجتماعية التي تساعد على تحقيق ذاتية الإنسان وبناء شخصيته نظرا لما تقوم به من وظائف أساسية ومهام جوهرية ينتفع منها"[20].

فالمائدة جزء أساسي في حياة الفرد، حيث يستثمرها من أجل إعلان انتماءه إلى العائلة من جهة. ومن جهة أخرى، قد تستثمرها أيضا ، أي العائلة نفسها وبدورها من اجل ضبط الفرد ضبطا بيولوجيا وثقافيا واجتماعيا يتماشى ومنطق تنشئتها الاجتماعية والتي هي في حقيقة الأمر "عملية تلقين الفرد قيم ومقاييس ومفاهيم مجتمعه الذي يعيش فيه ،إذ يصبح متدربا ومؤهلا على أشغال مجموعة ادوار تحدد نمط سلوكه اليومي والتفعيلي[21].

فالفرد وهو يجلس يوميا مع أفراد عائلته حول مائدة الطعام يأكل ما يقدم له ،ويتربى وفق ما تفرضه عليه العائلة من قيم وفضائل ،وبالتالي، "فيكسب تربيته وتنشئته من الأفراد المحيطين به، فيتعلم منهم الأدوار الاجتماعية والعادات والتقاليد والقيم والأخلاق التي تعد من ضرورات الحياة الإنسانية."[22]

يتغذى الفرد من مائدة عائلته الطعام و الثقافة الاجتماعية التي لا تولد معه ولكنها تتكون وتنمو تدريجيا بتفاعله مع المحيط الاجتماعي والثقافي الذي ينشأ فيه. والذي يسهر على ضبط الآليات الروحية والمادية والسلوكية للمائدة من حيث الانضباط المكاني والزمني والسلوكي والثقافي. فالمائدة هي مكان الأكل وزمن الأكل وسلوك الأكل وثقافة الأكل، ومن ثم فهي بطريقة أو بأخرى "تقوم بدور الوسيط الأهم بين الأفراد والمجتمع... وإن ثقافة المجتمع تنتقل إلى الفرد من خلال عائلته... وان العائلة تهيئ الفرد للعمل في المجتمع، هنا نود أن نضيف أن العائلة كوسيط بين الأفراد والمجتمع يمكن أن تلعب عدة أدوار مهمة منها أن دور الفرد ونفوذه ومكانته وتوفر المجالات أمامه ومناعته في المجتمع ترتبط بدور العائلة ونفوذها ومكانتها وتوفر المجالات أمامها ومناعتها."[23]

كيف يتم التفعيل الثقافي والاجتماعي؟

يتناول الفرد طعامه مع عائلته حول المائدة الواحدة وفق منطق ثقافي واجتماعي مادته الأولى والأساسية وبامتياز القيم الأخلاقية التي تسعى العائلة إلى غرسها في نفسيته كالانضباط وقت الأكل، وحسن الجلوس وحسن المحادثة، والسماع للآخرين. والاحترام والنظافة، والقناعة، وعدم التبذير، والطاعة والحوار، والتشاور، والتعاطف ،والتآزر، والتواضع والرضا... فالمائدة هي حقل ثقافي وتربوي بامتياز ،أو بالأحرى ،فهي مدرسة للتربية ومؤسسة للثقافة، أي الثقافة في إطارها ومفهومها الشامل كما حددها العلامة الأنتروبولوجي الشهير ادوار تارنات تايلور (1832_1937) حين قال: بأنها كل مركب يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع."[24]

إن الفرد يولد ويتربى وينمو جسديا وثقافيا في أحضان مائدة عائلته، حيث يأكل ويتغذى ويتعلم ويتربى، فينمو جسده وعقله، فهو لا يجلس حول مائدة عائلته دون أن يسمع إلى قصة أو حادثة أو خبر أو نصيحة أو عتاب أو تهنئة وذلك حسب الحالات والأحداث والمناسبات.

وفي الجواب عن السؤال كيف يتم التفعيل الثقافي والاجتماعي حول المائدة لابد من الإشارة إلى عملية التقليد[25] والمحاكاة حيث أن الأطفال الجالسون حول نفس مائدة الكبار، يقلدون آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم الكبار. فالتقليد يحتل مساحة كبيرة في عملية التفعيل الثقافي والاجتماعي. وبفضله يتعلم الفرد عددا من السلوكيات المادية والمعنوية الخاصة بثقافة المائدة وثقافة الأكل.

5-المائدة والبعد الاقتصادي.

تعتبر المائدة صورة صادقة وناطقة تكشف وتترجم طبيعية ومستوى الاستهلاك العائلي والذي هو مرهون في اعتقادنا بالقدرة الشرائية.

فإن السؤال الذي اعتاد المرء أن يطرحه حول ماذا يأكل أفراد العائلة، يظل مبتورا من جزءه الأساسي والمرتبط أصلا بالتسويق والشراء: ماذا تشتري العائلة لكي تحضر مائدتها؟

وقد نجد أنفسنا أمام عدة محطات استفهامية مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا عضويا. بداية من الوضعية الاقتصادية لأفراد العائلة وكذا عددهم، وعدد أصحاب الدخل والرواتب، ومستواهم الثقافي وأنماط حياتهم الاجتماعية. حيث أنه إذا كان أفراد العائلة ميسرين ويتمتعون بدخل مادي

معتبر، قد تكون حال مائدتهم امتدادا ماديا لحالتهم ولأحوالهم المادية. وقد يتجلى كل ذلك من خلال طبيعة الأطعمة والأواني وكيفية الطبخ ،وربما حتى من مصادر التسويق والمحلات والدكاكين المقصودة من أجل اقتناء الحاجات الضرورية لتحضير الأكل...

أما إذا كانت حالة العائلة فقيرة وقدرتها الشرائية محدودة فحال مائدتها لا يختلف عن حالتها الاجتماعية والاقتصادية.

فالمائدة وليدة الحالة الاقتصادية للعائلة وامتداد مادي لها ،حيث تترجم بصدق وبكل واقعية مستواها الاستهلاكي، والذي هو شكل من أشكال هويتها الاقتصادية الاجتماعية. فالمائدة بأنواع أطعمتها ومشروباتها ، تبقى بصورة جلية حاملة وفي نفس الوقت منتجة للمعاني. فهي حقل من العلامات الدالة. و هي أيضا نظام اتصالي تواصلي بين الأفراد ومستوياتهم المادية والمعنوية والسلوكية ،حيث يتم فيها وعبرها التبادل والتعاقد والتفاهم والتقارب بينهم، وقد تمر هذه العلاقة وتتأسس في لحظة الجلوس ،والتي هي لحظة ميلاد الثقافة العائلة المادية والبيولوجية، ولحظة إنتاج المعنى، ولحظة تفعيل النظام المادي الاستهلاكي الذي يمر عبر مخيلة كل الأفراد وفق نمطية مسئولة وملتزمة وواعية بالحالة الاقتصادية.

ومن هذا المنطلق، تقوم المائدة وبصورة التي تقدر عليها العائلة بدور الوسيط والحامي لهوية الفرد المادية ونظام تسيير شؤونه المالية والاقتصادية، فهي الفضاء الوحيد وبامتياز الذي ينتج قيما مستمدة من حالة الفرد صاحب المائدة نفسه ،ويعمل على المحافظة عليها حتى يضمن لنفسه بعض من التوازنات المادية والمعنوية، فهو يتحرك ويحرك مائدته ليس وفقا لما يريد ولكن وفق ما هو قادر عليه non pas un vouloir faire mais selon un pouvoir faire .إن الحديث عن الحركية الاقتصادية من حيث التفعيل المادي والاستهلاكي للمائدة يقودنا إلى الحديث عن جانب آخر مرتبط ارتباطا عضويا بهذه العلاقة اقتصاد_مائدة، والمتمثل في تلك الحرف التقليدية الخشبية والخاصة بمادة النجارة والنجارين التقليدية والتقليديين الذين لا يزالون يصنعون الموائد ولا زالت العائلات التقليدية تطلبها وتقتنيها. فبالرغم التوجه الجديد الذي امتازت بها بعض العائلات في تبنيها الطاولة والكراسي للأكل، فلا زالت المائدة تصنع المشهد الحرفي ولا زال حضورها قويا من حيث الصناعة والتفنن في صناعتها واختيارها لها أحس الخشب.[26]

6-المائدة والبعد الفني والجمالي:

لعل ما يثير الدهشة والإعجاب أحيانا، هي تلك الصورة الفنية الجميلة التي تظهر بها المائدة والتي ثم تشكيلها عبر عدد من التفاعلات المادية والمعنوية والمتمثلة في أنواع المأكولات وألوانها وأنواع الأواني وأشكالها وألوانها وكيفية تقديمها وترتيبها منسجمة انسجاما تاما وكأنها لوحة زيتية جميلة تسر الناظرين الذين قد يأكلون بأعينهم قبل أن يأكلوا بأفواههم. فالعين وهي تنظر وتمتع بهذه الألوان وهذه الأنواع تفتح الشهية للناظر وتخلق لديه انفعالا جماليا "يتميز بالمتعة والانفتاح الخيالي والحدس المعرفي والنشوة، وبنفحة من الدفء الإنساني والأمل والعزة، وبمشاعر إنسانية أخرى يصعب علينا تسميتها."[27]

تتعامل سيدة العائلة مع مائدتها تعامل الفنان مع لوحته حين يختار الألوان والوسائل التلوينية والأبعاد الرمزية، فهي تجتهد في جلب الأواني الجميلة والخضر والفواكه والتوابل وإخضاعها لنظام شكلي وفني تريده وفق ذوقها الخاص والملائم أصلا للذوق العام للعائلة. إن العناية الفنية والجمالية بالمائدة قد تكون لها أعمق الأثر في نفسية أعضاء العائلة الذين قد يصابون بصدمة الفن والجمال قبل أن يصابوا بصدمة الذوق الجميل واللذيذ.

وكلتا الصدمتين تريدهما هذه السيدة كذلك، فتؤدي كل صدمة إلى الصدمة الأخرى، ويلتقي الجميل باللذيذ ،والممتع بالمفيد، والروحي بالمادي، والنفسي بالبيولوجي، في انسجام تام يجعل من المائدة مشهدا فنيا جماليا، ماديا وثقافيا رائعا محدثا نشوة "يضفى بها لونا وأهمية على ما من شأنه أن يكون بدون فن أمرا كئيبا وتافها نوعا ما. إن الفن عند البعض يجعل الحياة جديرة بأن نحياها والفن أيضا يتأثر بالحياة، لأن إبداع الفن يتطلب أناسا ذوي أيدي وحس بالشكل واللون والمكان الثلاثي الأبعاد والقدرة عن الشعور والشوق إلى الإبداع "28)

وقد تختلف فنية وجمالية المائدة من عائلة إلى عائلة أخرى، ومن امرأة إلى امرأة أخرى، كما تختلف اللوحات الزيتية والرسومات من فنان إلى آخر، وهذا أمر طبيعي يعود أصلا إلى اختلاف الرؤى ومستوى وأساليب العمل والقدرات التعبيرية والمقاصد والأهداف المرجوة .

وقد تكون سيدة العائلة على دراية بعالم الألوان والجمال والفن وقادرة على الإبداع في مادة الطبخ وتزيين المائدة وإخراجها في أبهى صورة فنية وغذائية، كما قد تكون ذات ثقافة تاريخية

واجتماعية وعقائدية تؤهلها إلى مواكبة الأحداث والمناسبات والأعياد، فتأتي مائدتها صورة حية وناطقة تعبر عن المناسبة من خلال ما تختاره من أطعمة ومأكولات خاصة بهذا الحدث وهذه المناسبة حيث شاع عند العائلات التقليدية أنه من المستحب ومن العرف الشعبي أن تضع لكل احتفالية أكلة خاصة.

فالمائدة حقل خصب تعلن من خلالها العائلة عن احتفالاتها وفرحتها بالأعياد والمناسبات، كما قد تصنع أيضا من المائدة نفسها خطابا رمزيا تعلن عبر ما تقدمه عليها من أطعمة خاصة أيضا عن أحداث حزينة وأليمة والتي شاع أنها تقدم مثل هذه المناسبات.

الخاتمة:

قد لا نبالغ إن نحن قلنا أن المائدة مؤسسة عقائدية وثقافية واجتماعية ونفسية واقتصادية وفنية، يتعلم الفرد فيها وعبرها عددا من القيم التي سارت عليها عائلته والتي تريدها منهجية ومادة خصبة للتنشئة الاجتماعية والثقافية والعقائدية تماشيا وهوية انتماء العائلة بصفة عامة.

فالمائدة جزء لا يتجزأ من هوية العائلة ومن كرمها ومن شرفها. فهي تسعى دوما وأبدا أن تعرضها في أحسن صورة مادية ومعنوية وسلوكية.

كما أن المائدة هي المؤشر العقائدي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي والنفسي والفني لنظام العلاقات داخل العائلة ،حيث يتفاعل فيها وعبرها العقائدي والاجتماعي والاقتصادي والفني وفق عادات وتقاليد ومعتقدات وطقوس تنظيمية مختلفة باختلاف حالات ومستويات وقدرات ورؤى العائلة للحياة وللموت وللأشياء وللرغبات وللذات.

الهوامش

1-Matty Chiva : L' innovation alimentaire Revue sciences humaines N :75- Paris, Aout 1997

2-Roland Barthes : L'aventure sémiologique. Ed. Seuil- Paris 1985.

3-Claude Fisheler : Les vertus du plaisir. Revue de Psychologie N: 159- Paris Décembre1997.

4_ابن منظور:لسان العرب مادة: ميد. دار صادر_ بيروت، د،ت

5_دانيال ريغ: السبيل_معجم عربي.فرنسي عربي كتبة لاروس_باريس 1983

6-Dictionnaire : Petit Robert.

7-Habib Salha : Poétique maghrébine et inter textualité. Publications da la faculté des lettres de la Manouba-Tunisie 1992.

8-Mohamed Dib: Qui se souvient de la mer . Ed, Mimos- La Différence (P.48- P¨49- P51- P80)

9_مدخل إلى التحليل البنيوي: (مجموعة من الباحثين) دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع_بيروت ط1985،1_ص 236

10_صبري مسلم حمادي: أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة. المؤسسات العربية للدراسات والنشر_ط1.بيروت1980.ص149

11_حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر_حيث استطلاعي اجتماعي مركز دراسات الوحدة العربية_ط2 _بيروت 1985_ص172

12-Claude Levi- Strauss : Les structures élémentaires de la parenté .Ed- Mouton- Paris 1949

13_د_احسان محمد الحسن: علم اجتماع العائلة دار وائل للنشر_ط.عمان الأردن. 2005ص79

14_من سورة المائدة الآية رقم 120

15_من سورة المائدة: الآيات رقم 112_113_114_115.

16_من سورة المائدة الآية رقم.3

17_أبو بكر الجزائري: منهاج المسلم *د.ط،1981*ص.ص128_133

18-Anne Muxel : Individu et mémoire familiale. Coll. Essais et Recherches- Ed Nathan 1996.

19-Christoph Wulf : Une anthropologie historique et culturelle, rituels, mimésis sociale et performativité. Traduction de Jean Claude Bourguignon, Christine Delory , Momberger, Nathalie Heyblon. Ed – Teraédre- Paris 2007. P49.

20_د.احسان محمد الحسن: م.س.ص58

21_م.س:ص203

22_م.س:ص203

23_حليم بركات: م.س.ص222

24_د.سامية حسن الساعاتي:الثقافة والشخصية_بحث في علم الاجتماع الثقافي. دار النهضة العربية_ط.1_بيروت 1983_ص.35

25-Christoph Wulf : ibid. P62

26_سعيدي محمد:انثروبولوجيا مظاهر الثقافة الشعبية،الدار الخلدونية،الجزائر،2014.

27_كلايف بل: الفن:ترجمة د.عادل مصطفى_مراجعة وتقديم ا.د ميشال ميتياس_دار النهضة العربية للطباعة والنشر_بيروت.ص10

28_م.س:ص89.